مُقدّمة

المرأة ، موضوع شائق يستهوى أرباب القلم وغيرهم من أهل الفن على مر العصور. والكتابة فى هذا الموضوع مهما كثرت وتنوعت لا تستوفى جوانبه ولا تلم بكل أقطاره، وليس هذا عن تقصير أو قصور فى الرؤية والمعالجة، ولكن لأن المرأة- كما وصفها الأستاذ مصطفى صادق الرافعى- سر لم يكشف للرجل بعد[1]. لهذا تجىء الكتابة عنها فى معظمها، عبارة عن انطباعات تحصّلت فى نفوس أصحابها، إما من خلال تجاربهم مع المرأة أو سماعهم عنها. وهى لذلك لا تخلو من كثير من التضارب والتناقض الذى يلف المرأة بستر آخر يجعلها طلسْما أكثر تعقيداً وغموضا. ولا تعنى كتابة الرجل عن تجربة مباشرة مع المرأة أنه فض سرّها ووقف على كل نوازعها، فهو لا يصف إلاّ ما تسمح له المرأة بالاطلاع عليه من أسرارها، وما تتركه يطفو إلى السطح من غوْر أعماقها.

إذن ، فالحديث عن المرأة متجدد دوماً، ولا يخلق بكثرة العودة إليه، مادام ما يصدر من هذا الحديث لا يلتقى فى حكم واحد، وهو إلى التقريب أدنى منه إلى التحقيق ، وفضلاً عن ذلك ، يكشف عن نوازع أصحابه وميُول نفوسهم أكثر مما يكشف عن حقيقة المرأة وطبيعتها. ولعل هذا العامل الأخير سبب ما نجده فى الكتابة عن هذا الموضوع من تعدد الرؤى واختلاف المذاهب .

وغلب الحديث عن المرأة لا يأتى خلُواً من ذكر علاقتها بالرجل، فهما معا مجموعان فى خيال الأدباء بقَرَنٍ واحد. ولا يستغرب هذا الجمع وقد جعله الله تعالى سر وجود الإنسان والمحدّد الأكبر للدنيوىّ من غاياته، والمجدد فى العيش لوسائله وأسبابه .

**

ولقد كان مقتل (هابيل) على يدىْ أخيه (قابيل) إيذانا ميكّرا بأن سيكون للمرأة، هذا الإنسان الضعيف، تأثير قوى فى نفس الرجل، لم يلبث أن ظهر فى مسلكه وتوجّهه. يكفى أن أول دم أريق كان بسبب بلوغها والحصول عليها. وهذا الحادث كان بمثابة تحذير للبشرية من أن هوى الرجل وشدة نزوعه إلى المرأة، قادر على أن يقهر في نفسه كافة العواطف الجميلة النبيلة ، حتى ما كان منها غريزيا متأصلا كحب الإنسان أهله وتعلقه بذويه :" فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين "[٢]. ولم تتوقف مأساة (هابيل) ؛ بل ظلّت تتكرر وأشباهها في كل عصر مصورة كيف يتدلّه الرجل كثيرا بالمرأة فلا يذعن لوازع من الدين ؛ أو سلطان من العقل .

ولم يكن مستغربا على الرجل ، يعلق على هذا النحو بالمرأة حتى يَقتُل من أجلها ؛ أن يبالغ فى استرضائها ؛ وأن يضحى بالكثير وبالغالى من أجلها . فاختار جانبها حين وُضِع فى مفاضلة بينها وبين الآخرين ؛ ولو أنّ هؤلاء الآخرين الأدنَوْن من عشيرته. ولم يتردد فى أن يُعلن عن موقفه هذا ويجهر به ، قائلاً لها مثل قول الشاعر :[٣]

مهلا فدتكِ عواذلى وحواسدى لا ؛ بل فدتكِ عشيرتى ورفقى

فهو يُفدّيها بالعدو وبالصديق والعشيرة فى آن واحد ؛ يسوّى بينهم جميعا فى ذلك ولا يستثنى أحدا. كما أنه حين وُضع فى اختيار بينها وبين المجد والجاه، آثرها واعتدّها قيمة تفوق كل ما تصبو إليه النفس من ذلك . ألم يُخَلِّ الملك إدوارد الثامن عرش بريطانيا من أجل محبوبته ، ويطرح من أجلها وراء ظهره بريق التاج وشهوة السلطان ؟!

لكن الرجل الذى تناهى بتضحيته إلى هذا الحد ؛ حين أيس من محبوبته ولم يجد لديها ما يكافىء هواه ؛ أصيب بشديد من خيبة الأمل . وحين أحس - رغم عطائه الجم - ميلها إلى سواه ؛ ثارت غيرته وتحركت دماء

الكبرياء للثأر فى صدره ؛ فقتلها ؛ وكان هذا دليلا على شدة تعلقه بها وقوة فعلها فى نفسه ؛ إذ لو كانت شيئا عارضا فى حياته لخلأها ومضى يكمل مسيرته . فهذا ابن الدمينة يقتل (أميمة) التى هام بها وترك فيها من الشعر ما رق لفظه ولطف معناه. وهذا ديك الجنّ يقتل جاريته، ثم يجبُل من بقاياها كأسا يشرب فيها خمره شغفا بها ورغبة فى ألّا تزايله وفى استبقائها قريبة منه. ثم هذا هو لقمان بن عاد- كما تذكر الأسطورة العربية - يقتل كل نسائه، ثم لا يكتفى بذلك فيوغل فى الانتقام حتى إنه ليطبق بكفيه حول عنق ابنته (صُحْر) قائلا لها : وأنت أيضا امرأه !! فصارت قولته مثلا ينم متى ردده الرجل عما أصبح يحسّه فى النساء عامة من سرعة التقلب وعدم الثبات على مودّة [٤] .

وبرغم ما يطالعه الرجل من شواهد هذا فى صفحات الماضى ، أو يسمعه فى أصداء الحاضر، ظل يهفو إلى المرأة، لا يقدر على هجرها أو يصبر على مجافاتها، مؤثراً الشقاء بجوارها على الراحة بعيدا عنها. وهو فى هذا كله ماض مع تيار الفطرة الذى جعله الله سببا فى إعمار الكون وإقام دورة الحياة .

وإذا كانت نفس الرجل تتوق إلى أشياء أخرى، تُسرّ بها وتستشعر الطمأنينة بالحصول عليها، كالمال والسلطة وحب النسل . . . الخ فإن توقها إلى الإلف - كما أسلفنا القول- يفوق ذلك كله ، بل إن الرجل ليستحب كثيرا من الأمور لأنها سبيل تمهّد للوصول إلى محبوبته . ثم إنه أخيراً ليستغنى بالمرأة تبادله الحب عن كل ذلك، ويصعب عليه الاستغناء بكل ذلك عن المرأة ، وإن كان فى بعض الشعوب يُبدى لها من جفاء الطبع ما لا يصور باطنه واختلاجات مشاعره .

ولمعاوية بن أبى سفيان مقولة تجلو قوة إحساس الرجل بالمرأة عامة ، يقول: " ما مرض المرضى ولا ندب الموتى مثل النساء ".[٥] وهو قول صائب لا يحتاج لإثبات صحته إلى دليل أكثر مما نراه ونلمسه فى حياتنا، فالرجل فى

كثير من مواقف العسر والشدة، يجد من حنو المرأة ورقة نفسها وتدفق عاطفتها، أما، وزوجة، وابنة، وأختا، وذات قرابة ، ما لا يجده عند ذويه من الرجال ، وما لا تسمح به غالبا طبائع الرجال. وما تجيش به نفوس النساء من تفجّع للشخص يمرض أو يرحل يُشعِر بأهميته أو جسامة فقده مع شدة علوق الأنفس به، وهذا شيء لا تفي به صلادة الرجال وقوة تماسكهم. ولعل في مرثية (مالك بن الريّب التميمي) التي بكى فيها نفسه وهو يقضي بعيداً عن دياره- خير شاهد على صدق قولة معاوية. فقد هاله أن يهلك بعيداً عن (نساء) قومه، فلا يُحَس له فقدٌ ولا تُستشعر لذهابه خسارة، فراح يندب لهذا السبب نفسه وينعى حظه :[٦] .

تذكّرت من يبكى عليّ فلم أجد ... سوى السيف والرمح الردينيّ باكيا
وأشقر خنذيذ يجر عنانه ... إلى الماء،لم يترك له الدهر ساقيا[٧]
ولكن بأطراف (السُّمينة) نسوة ... عزيزٌ عليهن العشية ما بيا[٨]

ويصرّح بأسباب تحسّره فيقول :

أقلب طرفي فوق رحلي فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مراعيا
وبالرمل مني نسوة لو شهدنني ... بكين وفدّين الطبيب المداويا
فمنهن أم وابنتاها وخالتي ... وباكية أخرى تهيج البواكيا

ويلاحظ أن الشاعر لم يورد في مقام التفجع عليه والحزن من أجله ذكرا لرجال عشيرته ، كما يلاحظ في هذه الأبيات كيف اختص زوجته دون الآخريات من ذويه بالقسط الأكبر من الإحساس بروعة الفقد والتعبير عنه ، ولهذا دلالته التي لا تخفى على ذي لب وبصيرة .

هذه القوة التي تشد الرجل إلى المرأة كما تشد المرأة إلى الرجل، لم يتمكن واحد من طبعها فيما وصف وصوّر، إذ هي إحساس غريب مُبهم وعاطفة مركّبة متداخلة الأحاسيس ، يمتزج فيها الخوف بالرجاء والأمل باليأس والرقة

بالعنف، إلى غير ذلك من الأضداد والمتناقضات التى تكوّن فى مجموعها ما ندعوه بعاطفة (الحب). ولقد كان البهاء زهير وشوقى والزهاوى صادقين حين أعلنو عجزهم عن وصف هذه القوة الجاذبة ، فقال الأول [٩]:

يقول أناس : لو وصفت لنا الهوى فو الله،ما أدرى الهوى،كيف يوصف؟!

وقال الثانى [١٠]:

حبتك ذات الخال ، والحب حالة إذا عرضت للمرء لم يدر ماهيا

وقال الأخير :

إن الهوى معنىً تُقصّر عن إبانته العباره

وقد حاول جبران وصف عاطفة الحب فقال [١١]:

الحب فى الأرواح كخمرة فى الكاسْ
ما بان منها ماء وما خفى أنفاسْ

ويلاحظ أنه لم يقل شيئا، إذ لم يصف هذه الأنفاس وهى ما يتردد فى جنبات الإنسان من انفعالات تعنف به وتجعله كيانا آخر .

والذى نسمعه أو نطالعه من حديث عن عاطفة الحب، ليس- وإن كثر- وصفا لها، هى ، وإنما هو وصف لآثارها البادية على المحبين ، وعلى أحوالهم وسلوكهم ، ولما أحدثته من تبّدل فى نظرتهم إلى كل ما حولهم. وليس الحديث عن أثر الشمس وصفا للشمس ذاتها وكشفا لسرها ودقيق ملامحها، فلا سبيل إلى ذلك إلا فيما ينشط إليه الخيال من تصوّرات أو تدرج عليه الأوهام من معاج. كما أن الحديث عن مظاهر حياة الإنسان لا يعنى وصفا لقوة الحياة العاملة فيها أو اجتلاء لسر الروح فيه.

ولقد حاول الحكماء والفلاسفة والمتصوفة تعريف (الحب) بل تقريبه، فغلبت حكمتهم وفلسفتهم فطرته وطمستها، وجاء فى أقوالهم من الغموض والالتواء ما يصدف بنفس القارىء ويجعله يحس أنهم يتحدثون عن عاطفة أخرى

غير ما يُحس، أو أنهم ينزعون عن (الحب)، هذه الثمرةِ الشهيةِ قشرتها الرقيقة الغضة ليستبدلوا بها قشرة سميكة صلدة لا سبيل للطاعم إلى نزعها واستمراء ما تحتها. ولم يتوان علماء النفس عن المساهمة فى ذلك ، إذ أدخلوا لنفس البشرية إلى معاملهم يحللونها ويتعرفون نزعاتها، وخرجوا على الناس بنظريات عديدة، جعلت النفس الإنسانية وبخاصة نفس المرأة ، غابة كثيفة مليئة بالغموض والإلغاز ، وهى منذ (فرويد) تتعرض لهجوم كثير، ولا يُنظَر إليها على أنها تمثل رؤية علمية صحيحة[١٢] .

ولأن تعلّق الرجل بالمرأة قدرىّ وقديم قدم آدم وحواء، وجدنا الشعوب تخترع من آماد سحيقة من الخرافات والأساطير ما يصور رغبة الذكر معارمة فى الاستحواذ على الأنثى والسعي الجاد إلى كسب رضاها. ولا تفرق هذه الأساطير بين الذكر بشرا، وبينه إلها أو نصف إله، فالكل يصارع ويقتتل من أجل استبقائها أو الظفر بها، ولا تستشعر الآلهة فى هذه الأساطير قداسة تعصمها من أن تتردى فيما يتردى فيه البشر من حمأة الجسد.

ولأن هذه الشعوب البدائية أدركت أهمية المرأة فى حياة الرجل وأنها تشغله مثلما يشغله البحث عن ضرورات حياته وبقائه ، جعلت للحب إلها تفرّغ له وقصر عمله عليه . ومنذ اصطنعت الشعوب (كيوبيد) إلها للحب ، وهو يمسك بقوسه ويصمى بسهامه قلوب البشر والآلهة ، ويبدع ما يحلو له من قصص العشق، ما ينتهى نهاية سعيدة ، وما ينتهى نهاية دامية حزينة.

وتختلط مخترعات الشعوب الخرافية- الأسطورية فى العشق بحقائق حياتها وتاريخها، حتى ليحسب قارىء تواريخ الشعوب القديمة- لكثرة ما يجد من ذلك ومن بروز دور المرأة فى الأحداث التاريخية- أن سعى الرجل إلى المرأة أو غيرته عليها ، كانت سببا فى اشتعال كثير من الحروب. ولعلنا نحس ذلك فى الإلياذة والأوديسة، وخلال قراءتنا تاريخ البطالمة، الذى تحوّلت فيه علاقة

كليوباترة ببعض قواد روما إلى شبه أسطورة ، تشابكت فيها خيوط الحب بالمواقف السياسية ، وجُعلت عاملا على وقوع بعض الأحداث الجسام. ومَنْ يطالع السير الشعبية ويتابعها ، يلاحظ أن المادة التاريخية الأصيلة تختفى عصرا بعد عصر، ولا تظهر إلا باهتة الملامح بجوار ما يبثه الرواة فى تضاعيف السيرة من شجون المحبين ، وما يختلقون لهم من مواقف وأحداث ، يدعمون بها دوما هذ الخيط العاطفى حتى يصير أبرز الخطوط، وحتى يتصور القارىء أن المرأة صارت هى محور العمل الفنى الذى تدور حوله الأحداث ، أو البؤرة التى تتجه إليها وتصب فيها، وهى ظاهرة شديدة الوضوح فى الفن الشعبى بعامة، وبخاصة فيما تعرضه ألف ليلة وليلة من أحوال وتاريخ المجتمع العربى .

وفى تاريخ أدبنا الحديث ، وربما فى الأدب العالمى بعامة ، يندر أن نجد رواية خلت من المرأة وحديث الحب . فإن لم تكن المرأة هى محور العمل الفنى ومركز الاهتمام فيه كما هو شأن بعض الروايات التى تتناول الجانب السياسى وكفاح الشعوب ، فإن الكتّاب يجعلون للمرأة نصيباً فى هذه الأعمال ، فيبدعون لها مع رجل قصة تكون خطًا فى هذا العمل موازيا للخط الدرامى الأصلى، الذى اعتزمه الكاتب وتهيأ له . فالكُتّاب يدركون بفطرتهم أن قصّةً تخلو من حديثٍ يلفِق بين المرأة والرجل ، عملٌ جاف قد لا تصبر عليه نفوس كثيرة، وقد ينتهى إلى فشل. أما دواوين الشعر فهى على اختلاف عصوره تفيض بأشواق النفس ولواعج المحبين ، وتموج برغبات العشاق ، ماكان منها ساميا ، وما كان متقدا يؤج بسُعار الغريزة .

**

إن الله تعالى- وقد شاء أن تكون المرأة أضعف بنية من الرجل، وشاء أن تكون له القِوامة عليها- هيّأ لهذه المرأة ما يُمكنها أن تعيش به فى كنف هذا الرجل عزيزة مطمئنة . فوهبها من دواعى الفتنة ما يشد إليها هذا الرجل ويُلين

من طبعه، فإذا به يرق لها ويبالغ فى الرقة ، حتى يصل إلى درجة تنعكس فيها الأحوال فتصبح هى ممسكةً بزمام أمره ، موجهةً مسلكه. وهذه حقيقة يعيشها الرجل واقعا ، ونجد الكثير الذى يؤكدها من الآثار الأدبية والأخبار التاريخية. يعترف الرشيد بهذه الحقيقة فيقول :[١٣]

مالى تطاوعنى البرّية كلها ... وأطيعهنّ، وهُن فى عصيانى
ما ذاك إلاّ أن سلطان الهوى ... وهو الضعيف أعزّ من سلطانى

ولهذا كان البطل الجديربصفة البطولة ، هو مَن لا يصاول الرجال وينازلهم فى ميادين القتال، وإنما هو الذى يصبر على مواجهة المرأة الضعيفة، ترشقه بسهامها التى لا تخطىء ، فتصمى منه القلب، وتصرع اللّب :[١٤]

وليس بالبطل، الماشى إلى بطلٍ ... فى الحرب، يُحْمَدُ أحيانا ويُبْتَذَلُ
لكنه مَن له قلبٌ ، إذا رُشقت ... فيه العيون، فذاك الفارس البطلُ

**

وليس هوًى فى النفس فحسب ، ما دفعنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع الذى هزّ عديدا من الأفئدة واستمال كثيرا من الأقلام ، فَجَرَت تسطّر فيه الأسفار تلو الأسفار، فإن هذه الرغبة كان بالإمكان إشباعها بكثرة مطالعة ما كُتب فيه. لكننى أحسست بعد طول قراءة وتأمل ، أن باستطاعتى إضافة كلمة إلى هذه الأسفار ، واضحةٍ ذات حروف مميّزة وشخصية حاضرة مستقلة تتمتع بخصوص فى الرؤية وجديد فى العرض. ويجعلنى متيقنا من ذلك عدة أمور، أهمها :

أ- ما أوضحتُه قبْلا من تشعّب هذا الموضوع وغموضه، واستحالة الوصول فيه إلى قول فصل تجتمع عليه كل الآراء وتسكن إليه كل النفوس . ومن ثم فهو موضوع يتجدد دوما بتجدد الرؤى وتنوع القرائح. وإن الموضوع

الواضح قريب الغوْر، سهل المأتى، لتتناوله أقلام عديدة، فلا نجد فيما أثمرت تطابقا فى الشكل أو تماثلا فى المذاق، برغم وضوح الجوهر وسهولة المأخذ فإن طريقة المعالجة ذاتها، وهى أمر يختلف حتما من شخص لآخر، كفيلة بأن تحقق لكل كاتب تفرّده وخصوصية عبارته، وأن تضفى على مادة العمل صبغا ومذاقا آخريْن . وهذه حقيقة لا مراء فيها.

ب- معظم الدراسات التى تناولت هذا الموضوع قديما وحديثا، يعمد إلى حشد كثير من التفاصيل والجزئيات التى لا تمثل عنصرا أصيلا فى عاطفة الحب، فتبدو هذه العاطفة من خلال هذه التفاصيل الكثيرة خافتة الصوت شاحبة الملامح، يهى الجديرة بالتنويه والاهتمام. وليس ذلك إلا لأن أصحاب هذه البحوث كانوا معنيين بتناول (الغزل) بعامة، بوصفه نمّا جامعا لكل ألوان الحديث عن المرأة، ماكان منه متعلقا بالجسد وما كان منه مصوّرا أشواق النفس. ولأن الغزل كما هو معروف إطار واسع جداً، فقد تلاشى فى مضطربه صوت هذه العاطفة التى هى أهم وأسمى جوانب تعلق الرجل بالمرأة . وهذه الظاهرة فى الكتابة تلافاها هذا البحث بتعميق القول فيما تنهض عليه عاطفة الحب من ركائز قوية ، وبتصوير ما تتقلب النفس فيه بسببها من حالات. فإذا كان الغزل هو فن الحديث عن المرأة بعامة، فإن هذه العاطفة أهم جوانب هذا الفن وأولاها بالوصف .

ولا يظنن ظان ، أن الجمع بين (معانى الحب) و(طباع المرأة) فى هذا البحث - كما يبدو لأول وهلة - جمعٌ متعسّف بين مختلفيْن، فإن العلاقة بينهما علاقة العلة بالمعلول والصوت برجعه وصداه . وأكثر ما فى الشعر من معانى الحب الجيدة، ومن وصف لحالاته وتباريحه ، جاء نتيجة مباشرة لما يحسه الرجل فى المرأة من طباعٍ حقيقية أو موهومة ، وصدَر فى صدْر الرجل كردٍّ فعل لهذه

الطباع أو انعكاس لها .

جـ - ما كُتب حول هذا الموضوع فى الشعر العربى الحديث ، نزر إذا قورن بما كتب فى الغزل بعامة ، أو بما كتب عن ظاهرة الحب العذرى فى العصر الأموى. ولهذا كان الشعر الحديث بحاجة إلى مزيد من الرؤى تبرز ما فيه من شرح لهذه العاطفة وتصوير لفعلها، وتعرض ما فيه من سمات المتابعة أو عناصر الجدة. كما أن هذه البحوث- على قلتها- صرفت معظم اهتمامها إلى توضيح الدوافع الشخصية أو الأسباب الاجتماعية و السياسية التى وجهت هذا الشاعر أو ذاك وجهة معينة من حديث الغزل. وهى تبالغ فى ذلك حتى تجعل القارىء يتصور عواطف الإنسان ونوازعه الروحية مجرد انعكاس وصدى لظروف بيئته. ولو أنها قالت بأن للبيئة وظروف المجتمع أثرا (ما) فى تشكيل رغائب الإنسان وقدرته على البوح بها، لكان ذلك أمرا معقولا ومقبولا. لكنها غالت فى كثير مما قالت، حتى جعلت إحساس الإنسان وعواطفه مجرد ظاهرة اجتماعية. وهذا التفسير (الآلى) لا يصلح بحال ، لأن يُقتصَر عليه فى تعليل ميول النفس وأوطارها ، وما تخف إليه للتعبير عن أشواقها من ضروب الفن.[١٥]

وقد شملت دراستى أشهر دواوين الشعر العربى الحديث الممثِّلة للتيارين، الرومانسى والمحافظ ، والمشهور منها كثير ، ثقةً من أن الباحث كلما اتسعت أمامه رقعة الأرض التى ينقّب فيها عن الظاهرة، وكلما وجد هذه الظاهرة تطّرد وتتكرر، كان أقدر على التعليل ، وأجرأ على إصدار الحكم .

وهذه الدراسة تتألف من :

المدخـــــل : المرأة بين امرىء القيس وجميل

المبحـث الأول : عاطفة الحب فى شعر المحافظين .

المبحث الثانى : عاطفة الحب فى الشعر الرومانسى .

المبحث الثالث : طباع المرأة .

ولأن عاطفة الحب قديمة قدم الإنسان، كان عَقْد المدخل ضروريا لتأصيل هذه العاطفة، ولتمييز لونين لتعلّق الرجل بالمرأة. كما أننا من خلاله نتعرّف على مرتكزات الحب الروحى الذى اختفى منه حديث الشهوة، لتكون هاديا فى البحث عن تفرع هذه العاطفة وامتدادها فى الشعر العربى الحديث. ولا يعنى هذا أننى لن أنظر فى الشعر الحديث إلا من خلال الكُوّة التى يفتحها لى الشعراء القدامى، فلا أرى إلا ما وافق كلامهم ، ولا أقيس عواطف المحدثين إلا بمقياسهم. فقد قدّمت من القول ما يفيد تجدد القول والعبارة فى هذا الموضوع الإنسانى، ولا ينبغى لأحد أن يحجر على أى جديد يصوّر نشوة النفس ، تلمسها هذه العاطفة، ورعشة القلب بين أصابعها.

وأخيراً فالباحث يعلم علم اليقين أن هذه الدراسة ليست- كما يتصور بعضهم- أمرا يسيرا، أو مجرد تسرية لما يزدحم به الصدر من رغبات، فإن هذا الموضوع ، رقيقَ المظهر ، ليّنَ الملمس، من أشد الموضوعات وعورة، وأصعبها مراسا، يتشق على المرء معالجته لأسباب ، أهمها :

أ- أن علاقة الرجل بالمرأة، تناولها الفلاسفة والأدباء والأطباء والفقهاء وعلماء النفس . وقد اتسم كثير مما كُتب عنها بطابع التكرار الذى قد يقتصر أحيانا على حدود النقل. لهذا كانت الكتابة عنها تحتاج جديداً فى الرؤية وجديداً فى المنهج، فإذا لم يحدث هذا ، جاءت نسخة مكرورة وحديثا مُعادا لا غناء فيه .

ب- أن هذه الدراسة التى تحتشد لشرح حالات النفس وكشف خفاياها، لا يُرسل فيها اللفظ، ولا تقبل ما يعن فى أثناء الكتابة منه. بل تتطلب لغة خاصة، يترصّد الكاتب من أجلها للقبض على اللفظ الكاشف ذى الطاقة المصوّرة والدلالة الموحية، اللفظ الذى يتمكن فى عبارته ويتمتع بخصوصيّة ترفض

التـرادف . هذا اللفظ وحـده هو الذى يمكّن الكاتب فى هذا الموضـوع ، من أن يلتف حول المعنى فيصيبه، وحول الحالة فيجيد عرضها وتصوير ملامحها. فإذا ظفر به أحس راحة قصوى، وإلاّ بقِى كلّ ما تأهّب للكشف عنه غامضاً مبـهما.

جـ - ويتأسس على ماسبق أن تصبح الكتابة فى هذا الموضوع نوعاً قريبا من الإبداع ، وهذا يتطلب بدوره تأهّبا نفسيا عند الكاتب ، قبل تأهبه بأدواته ومادة موضـوعـه . وهذا التـأهب النفسى ، قد يصل من أجل دقـة تصـوير بعض الحـالات والمواقف إلى (تمثّل) هذه المواقف والاسـتـغـراق العـمـيق فى هذه الحالات، لتلبّس ما يمكنه من عواطف المحبين وتقمص إحساسهم .

وإنى لأرجو أن يسمع قارىء هذا البحث صوتا جديدا، ليس رجْعا لما قبله أو تضخيما له . فلهذا تحفّزتُ وصبرتُ .

**

مدخل

المرأة بين امرىء القيس وجميل

يُبرز لنا حديث الرجل عن المرأة فى الشعر العربى القديم لونين من التعلّق :

(الأول) : هُيامٌ بجسد المرأة ، ما يحويه من علامات الفتنة التى تستثير غرائز الرجل وشهواته . فلا قيمة للمرأة إلا لأنها تلبّى نداء الرغبة المُلحّ وتسكّن من نزوات الجسد . وشعر امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة خير ما يمثل هذا التعلق الجسدى . وهو موجود بدرجات قليلة لدى شعراء آخرين ، لكنه لا ينم عما نجده عند هذين الشاعرين من حُميّا الشهوة وعُرامها .

(الثانى) : نوعٌ راق من اعتلاق الأنفس ، لا يقوم على معطيات الحس الزائلة الحائلة ، وإنما يُؤسّس على الثوابت فى النفس ، فلا يكاد يَرِد فيه حديث عن نزوة أو وصف لشهوة . إنه صورة نقية من صور الحب ، يتخفف فيها المُحب من أثقال الغريزة ويسمو على معارج عالية من النقاء والطهر . وشعر جميل بن معمر وقيس بن الملوح مما يجلو هذا النزوع الروحى والطهر النفسى ، الذى كان ميسما للحب عند بنى عُذرة .

وحين أقصر الحديث على امرىء القيس ، أو أخصه بالكثير منه ، فلأننى أتخذه (رمزا) للتعلّق الحسّى الشهوىّ بالمرأة . وحين أصطنع ذلك مع جميل بن معمر ، فبوصفه (رمزا)لكل المحبّين الذين عفّت نفوسهم وترفعت عن حاجات الجسد .

**

فأما امرؤ القيس فلا تكاد صورة المرأة فى شعره تبدو بغير ملامح الأنثى التى تشبع - فحسب - له رغبة ، أو تطفىء ما يعنف به من أوار الشهوة . ومعظم حديثه عنها يؤج بسُعار الغريزة ، وبالرغبة العارمة فى تلبية حاجاتها ، ولا نكاد نشتمّ فيه غير رائحة واحدة ، كتلك التى تفوح من مثل قوله لعنيزة

وقد تأبّت عليه [1] :

فمثلك حُبلى قد طرقتُ ومرضــع   فألهيتها عن ذى تمائم مُحولِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له   بشِقّ وتحتى شِقُّها لم يُحَوّلِ

كما يمتلىء هذا الحديث بوصفه كيف يسترق الخطو إلى مضارب معشوقاته لتهدئة الثائر من نزواته على نحو ما يذكر لنا فى قوله [2] :

سموتُ إليها بعـد ما نـام أهلها   سموّ حُباب الماء ، حالا على حـالِ
فقالت : سباك الله إنك فاضحى   ألست ترى السُّمار والناس أحوالـيِ
فقلت : يمين الله أبرحُ قاعـــدا   ولو قطعوا رأسى لديكِ وأوصالـــى
حلفتُ لهـا باللـه حلفـة فاجـر   لناموا ، فما إن من حديث ولا صـالِ
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت   هصرت بغصن ٍ ذى شماريخَ ميّـــالِ
وصرنا إلى الحُسنى ورق كلامنا   ورُضتُ فذلّـت صعبـــةٌ ، أىّ إذلالِ
فأصبحت معشوقا وأصبح بعْلها   عليه القتامُ سيّيء الظن والبـــالِ

هذا الإصرار الشديد على مقارفة الإثم ، لا يصدر إلا عن شخص تحول كيانه كله إلى شهوة ، تلغى حدود العقل ولا تأبه بسوء العاقبة ، شهوة تدفع بصاحبها فى اتجاه واحد هو إرضاء الرغبة ولو قُطّعت (رأسه وأوصاله) . ولبلوغه هذه الغاية يحتال بكل الحيل ويتوسّل بكل الوسائل من قول و فعل ، يروض بهما المرأة حتى يذلّ له الصعب منها (أى إذلال) . لا يهمه من الأمر إلا أن يقضى وطره ، دون تفكير فيما تخلّف فعلته من آثار :

فأصبحت معشوقا وأصبح بَعْلها   عليه القتام سيّيء الظن والبالِ

ولئن كانت بعض الأنفس تعلق ببعضها لإحساسها شيئا من الجمال غير المنظور المحسوس ، أو للمشاكلة بينها والتقارب فى طباعها ، فإن رجلا مثل امريء القيس تدفعه رغبته الخرقاء ، لا يمكن أن يصبو إلى المرأة لشىء من هذا ،

ولا يمكن أن يحس فى تعلقه بها (**خصوصيّة**) تجعله يجتزيء بواحدة عن كل النساء . إنه مشدود إلى الجسد سواء كان جَسد (عنيزة) ، أو (بسباسة) أو (**فاطمة**) ، أو ..... إلخ ولا فرق فى ذلك عنده بين امرأة متزوجة أو بكر عذراء . ولا تأنف نفسه من أن يأتى المرأة فى خدرها تحتضن رضيعها فيصرفه عنه . وكيف تأنف نفسه من ذلك وقد كان يعدُّ إلهاء الأم عن رضيعها دليلا على فحولته ومظهرا لكلف النساء به [٣] .

وها هو عمر بن أبى ربيعة يأتى بعد امريء القيس بسنوات طوال ، فيأتى من ضروب اللهو فى عصره المستظل بظل الإسلام ورهبة السلطان ، بما لم يأت به لمرؤ القيس . وقاريء شعره يخرج بانطباع واحد ، هو أن هذا الرجل لم يكن يشغله فى حياته أمر سوى المرأة ، يتعقبها ويترصّد لها . ويكفى أنه وصف نفسه فى أخريات حياته بأنه لم يعرف حراما قط ، فكل شيء كان مباحا لديه. وأخباره تقول إنه كان يتعجل موسم الحج ، لأنه يمكنه من مزاحمة النساء وملاقاتهن والحديث إليهن، حتى إنه تمنى أن يكون فى العام الواحد ست حجّات لا حجّة واحدة [٤] :

ليت ذا الحج كان حتما علينا كل شهرين حجّة واعتمارا

ولو أنه جاهد نفسه وانتوى التوبة فى حجّة صحيحة يسقط بها الله ذنوبه ، لَشدّة طبعه وغلبه على أمره ، فآب وهو أشد خُسرا [٥]:

تروّح يرجو أن تحُط ذنوبهُ فآب وقد زادت عليه ذنوبُ

فلا عجب إن عدّ الفقهاء شعر عمر بن أبى ربيعة خطرا وضررا على الآداب ، فقال ابن جريج : " ما دخل العواتق فى حجالهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة " وقال هشام بن عروة : " لا تروّوا فتياتكم شعر عمربن أبى ربيعة لئلّا يتورّطن فى الزنا تورّطا "[٦] ويُروى أنه سئل مرة : يا أبا

الخطاب ، أكل ما قلته فى شعرك فعلته؟ قال : نعم ، وأستغفرُ الله [٧].

وهذه الأخبار الكثيرة التى تروى عنه فى مصادر مختلفة فضلا عن شعره ، تؤكد شيئا واحدا هو أنه كان أهم الذين عمّقوا مذهب الشهوة والتلذذ الحسى بعد امرىء القيس ، برغم ما نجده من سمات هذا الاتجاه الحسّى عند شعراء آخرين ، جاهليين وإسلاميين .

أما جميل بن معمر ،فيسمو بنفسه و بمحبوبته بعيدا عن الأرض التى يلتقى عليها (الذكر والأنثى) ، يحملها على جناح عريض من الخيال رقّقته عفته وشف كصفاء نفسه . وهو يحوطها فى كل شعره بدثار من إيثاره وتضحيته وعطائه الذى لا ينتظر ردا .

يصف لقاءه بثينة وطهر هذا اللقاء فيقول :[٨]

وكان التفرّق عند الصبا ... ح عن مثل رائحة العنبرِ
خليلان لم يقربا ريبة ... ولم يستخفا إلى منكرِ

ومن كان هذا شأنه فى الحب ، تهفو روحه ولا يتحرّق جسده ، لأنه يقنع بكل أحواله مع من يحب ، ويثبت على مودته ولو بدا من الأمر ما يكدّر صفو هذه المودة ،فعوارض الحب لا تؤثر فى جوهره . ولأن هذا الحب ينمو خارج حدود الجسد ولا يتغذى بنزواته ، لا يخفت له صوت وإن حيل بين المتحابيْن وقامت بينهما المسافات وأسوار التقاليد والعادات . فكل منهما يفى على البعد للآخر ويخلص له على الغيب . يقول جميل :[٩]

فلا وأبيها الخير ما خنت عهدها ... ولا لِىَ عِلمٌ بالذى فعلتْ بعدى
وما زادها الواشون إلا كرامةً ... علىّ وما زالت مودتها عندى
تزيد نماء كل يوم ... وليلةٍ ... وأمنحها فيما أُسِرّ وما أبدِى

وإخلاص المحب على الغيب ومنحه محبوبه فيما يُسر وما يُبدى ، درجةٌ

عالية من صدق العاطفة واعتلاق الأنفس . فجميل يزداد حبه بثينةَ وهو لا يعلم من أمرها شيئا ، إن كانت حافظة لعهده أو تحولت عنه . وليس ذلك إلا لأنه يصدر فى حبه لها عما استقر فى قلبه هو وقام بين جوانحه ، وليس عما تبديه له من لواعج الشوق وتصرّح به .

وما ذكره جميل فى البيت الأول من إخلاص لا ينتظر مكافأة، يردده المجنون فى قوله [١٠] :

وأشهد عند الله أنى أحبها فهذا لها عندى،فما عندها ليا ؟

وهذه مرتبة عالية من مراتب الحب الروحى ، وصفها بعض ذوى النزعة الصوفية بقوله :

" شرط المحبة أن تكون ميّلا بلا نيْل ، وشرطا بلا جزاء ، لئلا تزول عند زوال العوض " [١١]. ومثل هذا الحب قد يزيده الوصل توهّجا ، لكن غياب المحبوب وإن طال لا يطفيء جذوته ولا يكون عذرا للتحوّل إلى وجهة أخرى . يقول ابن الدمينة وقد أقام من نفسه رقيبا عليه فى غياب محبوبته [١٢]:

وإنى لأستحيبكِ حتى كأنما عليّ بظهر الغيب منكِ رقيبُ

ويُجيد محمد بن داود عرضَ مضمون بيت ابن الدمينة وتصويرَه فيقول[١٣]:

كأن رقيبا منكِ يرعى خواطرى وآخرَ يرعى ناظرى ولسانى
فما عاينتْ عيناى بعدك منظرا يسوؤك إلاّ قلتُ : قد رمقانى
ولا خطرت من ذكر غيرك خطرة على القلب إلاّ عرّجا بعِنانى

فقد أقام لمحبوبه على البعد رقيبين عليه ، الأول مُوكّل بخواطره ينفى منها ما يرد لغير هذا المحبوب ، والثانى يرعى ناظريه ولسانه ، فلا يكاد يرى ما يسوؤه أو يتحدث بغير ما يرضيه .

ومثل هذا الحب الذى يفى فيه المحب على الغيب مرتبة لا يسمو إليها امرؤ القيس أو عمر بن أبى ربيعة أو غيرهما ممن لا يستشعرون وجود للمرأة إلا فى حال معاينتها والالتصاق بجسدها . ولنستمع إلى عمر بن أبى ربيعة يصف صديقا عاشقا من بنى عُذرة ، ويقارن بين حاليْهما فى مطارحة الغرام :

" كان يلقى مثل الذى ألقى من الصبابة بالنساء والوجد بهن ، على أنه كان لا عاهر الخلوة ولا سريع السّلْوة " (١٤).

فعمر بن أبى ربيعة يعترف بأنه كان (**عاهر الخلوة**) مع النساء ، (**سريع السلوة**) لهن . وهاتان الصفتان لا نجدهما عند أصحاب الحب العذرى المطبوع بالعفة والثبات على المودة . يقول المجنون منزّها علاقته بليلى عن أرجاس النفس :(١٥)

حلفتُ بمن صلت قريشُ وجمّرتْ ... له بمنى يوم الإفاضة و النحرِ
لقد أصبحت منى حَصانا بريئة ... مطهّرة ليلى من الفحش والنكرِ

ويصف توبةُ الحميرى صاحب ليلى الأخيلية . وهما من فروع الدوحة العذرية ، قناعته فى حبه فيقول (١٦)

وأغبط من ليلى بما لا أنالهُ ... ألا كلّ ما قرّت به العين حالحُ

وما تقر به عينه يختلف عما تقر به عين امرىء القيس أو عمر بن أبى ربيعة . يقول الحجاج الثقفى لليلى الأخيلية وقد أدركها الهرم : " إن شيبك قد ذهب واضمحل أمرك وأمرتوبة . فأقسم عليك إلا صدقتنى . هل كانت بينكما ريبة قط ، أو خاطبك فى ذلك قط ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير . إلا أنه قال لى ليلة وقد خلونا كلمة ظننت أنه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له (١٧):

وذى حاجة قلنا له لا تبُح بها ... فليس إليها ما حييتُ سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغى أن نخونهُ ... وأنت لأخرى فارغٌ وحبلُ

وهذا المضمون يؤكده توبة فى قوله عن ليلى [١٨]:

على دماء البُدن إن كان بعْلها   يرى لِيَ ذنبا غير أنى أزورها

فأين مكان امرئ القيس وابن أبى ربيعة من مكان هؤلاء العذريين ، قناعةً وعفة نفس ؟ !

وإن تعلّق عشاق الجسد بالمرأة لعارض وموقوت ، شأن كل ما يطرأ على النفس من تعلّق بعرض الأشياء . فإنه إما يزول فى عاجل الأمر ببلوغ الوطر ، أو يزول فى آجله بذبول هذا الجسد واختفاء مفاتنه وفى المقابل يثبت الحب الروحى الذى يعجز صاحبه عن تحديد دواعيه والمباشر من علله وأسبابه . هذا الحب الذى أجاد شوقى عرض جوهره على لسان المجنون فقال [١٩]:

لم تزل ليلى بعينى طفلة   لم تزد عن أمس إلاّ أصبعا

فهو ينفى على لسان المجنون أن يكون تعلقه بليلى - وقد كبر وكبرت وطرأ عليها ما طرأ من مفاتن الأنثى - مثل تعلق عشاق الجسد . ويؤكد أن مرور الزمن لم يستبدل بنقاء حبه الطفولى الباكر رغبات تكدّر صفو علاقته وهواه . وهذا ما جاء به قول المجنون نفسه [٢٠]:

تعلقتُ ليلى وهْــــيَ غِرّ صغيرة   ولـمَ يَبْدُ ـلأتــراب من ثديها حجمُ
صغيرين نرعى البهم، ياليت أننا   إلى اليومِ لم نكبر، ولم تكبر البهمُ

فهذا العاشق لم يكن يتمنى للزمن أن يبرح بهما مرحلة الطفولة التى جمعت بغير حَرَج بينه وبينها . وقد كان يفزع ليلى واستكمالها أنوثتها سبب بليّته ، فهو فضلا عن زهده فيما جدّ من مفاتن جسدها ، يلقى بسبب ذلك مضاضة الحيلولة بينه وبَينها .

وإذا أردنا أن نمضى خطوات أبعد فى المقارنة بين المذهبين أو بين

الطبيعتين الجسدية والروحية ، فإن علينا أن نفصّل القول فى أهم الركائز التى ينهض عليها هذان الاتجاهان ، وهى ما سنؤسس عليه فيما بعد دراسة معانى الحب وتتبعها فى الشعر العربى الحديث ، لأنها أهم المعالم وأعمق الأصول . ويمكننا من خلال العناوين التالية عرضها وبسط القول فيها .

**

أولا : خصوصيّة الحب

فى شعر جميل لا نجد غير (**بثينة**)، وفى شعر المجنون لا نعثر على غير (**ليلى**) . وكان هذا سببا فى أن لُقّب كل منهما باسم صاحبته وجعل اسمها ميسما له ، فقيل : (**جميل بثينة**) و (**مجنون ليلى**) ، وقيس على ذلك (**كثيِّر عزّة**) و (**قيس لبنى**) . لونٌ من التوحيد فى عاطفة الحب عُرف به هؤلاء ، يهيم فيه الرجل بمحبوبته وتملك عليه أقطار نفسه ، فلا يبقى بقلبه متّسع لأخرى تحل به وتنازعها قياده . هذا ما نعنيه بـ (**خصوصية الحب**) ، التى يكثر الشاعر العذرى من وصفها وتصوير إحساسه بها وتقديم المعانى الكثيرة من أجل تأكيدها .

وفى شعر امرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة تتعدد أسماء النساء وتكثر فلا يحس القارىء توجّه الشاعر وجهة محددة . كل منهما يغتنم الفرصة المتاحة والصيد الذى يلوح . ولا عجب فى أن يحدثنا امرؤ القيس عن أكثر من امرأة فى القصيدة الواحدة وهو يصف مهارته فى قنص النساء والإيقاع بهن ، كما نرى فى قصيدته التى يقول فيها [٢١]:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى كبرت وأن لا يُحسِن اللهو أمثالى

وقد أصاب الشاعر إذ سمّى ما يأتيه (**لهْوا**) ، ففى القصيدة حديث

كثير عن هذا اللهو الذى يحسنه ويرضى به نزواته وفى شعر ابن أبى ربيعة تكثر الأسماء حتى لا يكاد مطالع شعره يحتفظ بشيء منها لسرعة ورودها ولاحتشادها أمام عينيه . نذكر منها : (**نُعْم والرباب وأسماء وزينب والثريا ورملة وعبدة ولبابة وسُعدى و...**) إلخ وهو يقسم لكل واحدة منهن على وفائه وصدق حبه ، ويقول لها من عذب الكلام ما يكرره على مسامع الأخريات ، كقوله لعائشة بنت طلحة [٢٢]:

فقلت : لا والذى حج الحجيج له ... ما محّ حبك من قلبى ولا نهبا
وما رأى القلب من شيء يُسر به ... مذ بان منزلكم منا ولا ثلجا

وقد كانت عائشة بنت طلحة على حق حين ردت عليه قائلة : " لا ورب الكعبة ما عنيتنا طرفة عين قط .." ، ثم انصرفت عنه . فعائشة كانت تعلم أنه صنف من الرجال يحط عند كل حسناء تعنّ له ، وأن ما يحسه تجاه المرأة شيء آخر غير ما وصف ، من تعلق القلب وسرور النفس . وهل يحب بقلبه رجلٌ من أخباره ، أنه كان يلقى المرأة وصواحبها فيتغزل فيهن جميعا ويشبب بهن معا ؟![٢٣]

لو كان باستطاعة رجل أن يصدق فى مثل هذا التعلّق ، فتتوزع عاطفته على أكثر من واحدة وفى آن واحد ، لكان ذا قلوب عديدة أو كان ذا قلب (قلوب) سريع التحول مثل هذا القلب الذى تبرأ منه المجنون وهو يؤكد خصوصية حبه ليلى :[٢٤]

لئن كان لى قلب يذوب بذكرها ... وقلب بأخرى ، إنها لقلوب

ولخصوصية الحب فى الشعر العذرى سمات ومظاهر يعرف بها هذا اللون الراقى من اعتلاق الأنفس . من هذه السمات :

* إحساس المحب بأن المرأة التى علقها ، قد ملكت عليه نفسه فلا يرى فى

وجوه الأخريات سوى وجهها ولا يسمع فى أصواتهن سوى صوتها . قد جعلها حظه من الدنيا ، فلا يبالى بعد أن ظفر بها بشيء آخر ، ربحه أو خسر ، فكل ما عداها عَرَض لا قيمة له . ولنسمع قول جميل [٢٥]:

رفعتُ عن الدنيا المنى غير ودّها فما أسأل الدنيا ولا أستزيدها

وقوله أيضا [٢٦]:

وددتُ ولا تغنى الودادة أنها نصيبى من الدنيا وأنى نصيبُها

ويكثر جميل وغيره من العذريين الحديث عن هذا الزهد فى غير المحبوب، ويجيدون وصفه وبيان مظاهره ، فيقول [٢٧]:

فلرُب عارضةٍ علينا وصلها بالجد تخلطه بقول الهازلِ
فأجبتها بالقول بعد تستّرٍ : حُبّى بثينةَ عن وصالكِ شاغلى
لو كان فى صدرى كقدر قُلامةٍ فضلٌ وصلتكِ أو أتتكِ رسائلى

ولو أن المحب العُذرى جاهد نفسه لتميل إلى غير محبوبته لتأبّت عليه . يقول المجنون [٢٨]:

إذا ماقرضتُ الشعر فى غير ذكرها أبى وأبيكم أن يطاوعنى شعرى

وهكذا تنزل المحبوبة فى نفس صاحبها موضعا لا ينزله غيرها ، يختصها صاحبها بأعظم ما يقدر عليه من ضروب الحفاوة ، حتى إنه ليأبى أن ينظر إليها بالعين التى يُبصر بها الأُخريات قبل أن يجلُوها ويطهّرها [٢٩]:

وكيف ترى ليلى بعين ترى بها سواها وما طهّرتها بلدامعِ

وكأنه يحس أن علاقته بها ، ينبغى أن تتميز بطقوس خاصة من التكريم لا يحظى بها غيرها من الناس . ومَنْ كان هذا شأنه مع صاحبته ، قد جعلها قبلة روحه ومقصده ومبلغ آماله ، لا يقدر على أن يسلوها أو يتلهّى عنها بغيرها على غرار ما يفعل عشاق الجسد [٣٠]:

تداويت من ليلى بليلى عن الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمرِ

فهو- وقد صار بيدها الحل والعقد فى أمره - لا يتداوى منها إلا بها ،ولا يفر منها إلا إليها ، قد أحاطت به وضربت سياجا من حوله ، وأصبحت حاله كما وصف أبو الشيص [٣١]:

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى مُتأخَّر عنه ولا مُتَقَدَّمُ

وهذه المعانى فى خصوصية الحب ليست ظواهر عرضية فى لغة الحب العذرى ،فهذه الدراسة - كما أسلفت القول- لا تهتم بالعَرَض ولا تؤسس عليه . وإنما هى إحساسات شاعت فى شعر العذريين ، ويعانيها ذوو الحب العَفّ فى كل مكان وزمان ، فيفصح بعضهم ويعجز الآخرون . يقول المرقش الأصغر [٣٢]:

أفاطمُ لو أن النساء ببلدة وأنت بأخرى لا تَّبعتكِ هائما

ويقول البحترى مثل ما قال جميل لبثينة [٣٣]:

أذ لفاءُ ، إن كان يرضيكمُ عذابى فدونكمُ عذّبوا
ألا ربّ طالبةٍ وصلنا أبينا عليها الذى تطلبُ
أردنا رضاكمْ بإسخاطها ويُخْلُك من جودها أطيبُ

لكن هذا لا يعنى أن البحترى - مثلا - من الشعراء الذين يمثلون هذا الحب الروحى الذى يفنى فيه المحب إخلاصا لمحبوبه ،لأن هذا الإحساس الذى عبر عنه يظهر فى شعره على استحياء ولا يمثل الطابع العام لعلاقته بالمرأة ، على عكس ما نرى عند جميل وغيره من أعلام الحب العذرى .

ولأن العذريين يحسون أنهم يوم حازوا قلب المرأة كأنما حازوا الدنيا بأسرها ، وأنها أصبحت تمثل لهم بمفردها عالما متكاملا قائما بذاته ، قد استوفى شروط الحياة وكل ما يحقق للمرء السعادة، وجدناهم يقولون كثيرا مثل قول جميل [٣٤]:

ألا لا أبالى جفوة الناس ما بدا لنا منك رأى يابثين جميلُ

فالصاحبة تغنى صاحبها وتكفيه ، فلا يهمه من أرضَى ومن أسخط وإنه ليهمس فى أذنها دوما بمثل قول أبى فراس لسيف الدولة [٣٥]:

فياليت ما بينى و بينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خرابُ

فهو مستكفٍ بوجودها إلى جواره لا يطلب من يأنس إليه بل إنه ليتمنى أن ينأى بها عن كل الناس ، وأن يعيش معها بعيدا عن أعينهم ، لا يظفران بغير القليل من الماء والنزر من الزاد . يهمس المجنون فى أذنيْ لبلى بهذه الأمنية الجميلة قائلا [٣٦]:

ألا ليتنا كنا غزالين نرتعِى رياضا من الحَوْذان فى بلد قفرِ

ألا ليتنا كنا حماميْ مفازة نطير ونأوى بالعشيّ إلى وكرِ

ألا ليتنا حوتان فى البحر نرتمى إذا نحن أمسينا نُلجّج فى البحرِ

كما يقول جميل :[٣٧]

تمنيتُ من حبى بثينة أننا على رَمَثٍ فى البحر ليس لنا قِفرُ

ومن قبل جميل والمجنون تمنّاها عاشق (وردة) سعيدُ بن أنيس حيث قال:[٣٨]

ألا ليتنى مُكنتُ من وردةَ المنى بعيدا من الأوطان فى مهمهٍ قفرِ

أكون بها وحدى ولا نبغ ثالثا هناك إلى يوم القيامة والحشرِ

ولا زاد معنا غير فضل سُلافةٍ وأبيضَ من ماء الزلال من القطرِ

وتفشو هذه الرغبة فى كثير من الشعر ، كل محب يتمنى أن يضرب بمحبوبته فى مفازة أو ينأى بها إلى حيث لا تقع عليه الأعين ، لا يهمه بعد ذلك ما يسقى وما يطعم . ولمّا كانت بثينة بالنسبة إلى جميل عالما واسعا عامرا مكتفيا بذاته ، لم يكن مستغربا عليه أن يقول :[٣٩]

ألا ليتني أعمى ، أصم تقودني بثينة لا يخفى عليَّ كلامها

وهو ليس خاسرا حين يتمنى العمى والصمم ، متى كانا سيدنيانه منها ويؤديان إلى ملازمتها ، وهو لا يأبه بانقطاع علاقته بالعالم الخارجي من حوله لفقده سمعه وبصره ، ما دام باستطاعته أن يرى بثينة وحدها ويسمعها بما بينهما من لغة خاصة ووسائل إدراك أخرى ، تصل إلى خفايا الإحساس وتتغلغل إلى بواطن الشعور .

* ومن مظاهر خصوصية الحب، إحساس المحب العميق بـ (**قدرية**) حبه . فالمحبوب بعض قدره ، لا مهرب منه ولا حيلة للافتكاك من أسره . وهذا لا يكون في حب الشهوة الذي تتعدد موارده وتزول حدته بإرواء الغلة وانطفاء الوقدة ، أو بزوال ما اعتلق به المحب من مفاتن الجسد في عاجل الأمر أو آجله ، مثلما يزول المعلول حال انتفاء علته . وأصحاب الحب العف بعامة يصفون هذا الإحساس ، وما تشعر به نفوسهم من الراحة ، مستسلمةً لقدرها راضية به . يقول جميل : [٤٠]

لقد لامني فيها أخ ذو قرابة حبيب إليه في نصيحته رشدي
فقال : أفق ، حتى متى أنت هائم ببثنة ، فيها لا تعيد ولا تُبدي؟!
فقلت له : فيما قضى الله ما ترى عليَّ،وهل فيما قضى الله من ردِ؟!
فإن يكُ رُشدا حبها أو غواية فقد جئته، ماكان مني على عمدِ

فحبه بثينة أمر لم يحاوله ولم يتعمده وليس له في دفعه حيلة ، لأنه (**مما قضى الله**) ، وما قضى الله لا يُردُّ. وبهذا التبرير كان يرد على كل من كان يلومه مشفقا عليه من التهلكة في حب لا طائل منه . فنراه يقول لبعض صحبه راجعه أمره وحثه على العدول عنه :

" يا أخي ، لو ملكت اختياري لكان ما قلتَ صوابا ، ولكني لا أملك

الاختيار ولا أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا : .[٤١]

كما يقول لأبيه وقد ألحّ عليه فى أن يتخذ من النساء زوجة تسليه عن بثينة :

" الرأى ما رأيتَ والقول كما قلتَ ، فهل رأيت قبلى أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أوملك أن يسلّى نفسه أو استطاع أن يدفع ما قُضى عليه ؟! والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى فعلت . ولكن لا سبيل إلى ذلك ، وإنما هو بلاء بُليتُ به لحيْن قد أتيح لى " .[٤٢]

فهو يدفع لوم لائميه وطلبهم التخلى عن بثينة بـ (القدرية) ، وينفى عن نفسه القدرة على الاختيار ، إذ هو مدفوع فى اتجاه واحد مقدور ، وإن أفضى به إلى الموت . وما فتىء يكرر هذا فى أنحاء متفرقة من شعره ، فيقول وهو يشكو لبثينة ما يكابد من بَرْح الحب :[٤٣]

قد كنت عنكم بعيد الدار مغتربا حتى دعانى لحيْن منكُم داعِ

وليس الحب قدرا عند جميل وحده ، بل هو قدر عند جميع العذريين وغيرهم من ذوى الحب الروحى العف ، لهذا يقول المجنون :[٤٤]

خليليّ لا والله ، لاأملك الذى قضى الله فى ليلى ولاماقضى ليا

ولأن الحب عند هؤلاء (قدر) لا دخل للإرادة البشرية فيه ،فلا يمكن ردّه ، أو التصرّف فيه إلا بقَدر مثله ، أى بمشيئة إلهية ، نجد المجنون يضرع إلى الله بعد أن أعيته الحيلة وأعوزته الوسيلة :[٤٥]

فيارب ،إذ صيّرت ليلى هى المنى فزِنّى بعينيها كما زِنتها ليا

وإلّا فبغّضها إلىّ و أهلها فإنى بليلى قد لقيت الدواهيا

فهو لم يصطنع حُبا ليقدر على بغض . فإذا لم يصف هؤلاء المحبون حبهم بأنه قدر ، وصفوه بأنه ضرب من (السحر) ، لكنه ليس كما يذكر المجنون كغيره من السحر الذى تذهب فعله الرُقى والتمائم أويُقضَى عليه بسحر مثله:

هى السحرُ ، إلّا أن للسحر رقيةً وإنى لا ألفى لها الدهر راقيا

وهكذا يتحول السحر عندهم أيضا - ما دام لا راقى له أبد الدهر - إلى قدر لا منجاة منه .

ومن سمات كل قدرىّ أنه ليس وليد الساعة أو ثمرة المصادفة . ولهذا لا يحرصون فحسب على وصف حبهم بأنه قدر حتم نفاذه ولا مهرب منه ، وإنما يزيدون على ذلك فيصفونه بأنه أزلى نافذ فى الأبد ، فيقول جميل :[٤٦]

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ومن بعد ماكنا نطافا وفى المهدِ
فزاد كمازدنا ، فأصبح ناميًا وليس إذا متنا بمنتقض العهدِ

ومثل هذا الحب الضارب بجذور نشأته فى أعماق الأزل ، الممتد بفروعه إلى الأبد ، لاعلاقة له إذن بالأجساد الموقوتة فى خلقه وفنائها . وقد انتشر هذا المعنى فى وصف الحب وتعلّق الأنفس بفضل هؤلاء الشعراء ، فنجد شاعرا كالمتنبى يقول فى كافور :[٤٧]

فتى ماسرينا فى ظهور جدودنا إلى عصره إلا نرجّى التلاقيا

* ولأن المحب العذرى يجعل المحبوب قدره ويرتضيه نصيبه وحظه ، الذى لا يستزيد عليه ولا يستبدل به سواه ، وجدناه يربط بقاءه فى الدنيا ببقائه ، ويجعل حياته رهنا بوجوده ، فإذا خلّى إلفه الحياة استعذب هو الموت ، وتعجل اللحاق به والثواء بجانبه : [٤٨]

ألا ليتنا نحيا جميعا فإن نمت يوافى لدى الموتى ضريحى ضريحها
فما أنا فى طول الحياة براغب إذا قيل قد سُوّى عليها صفيحها

وجميل صاحب هذه الأمنية يكثر من تكرارها راجيا ألا يفرق الله بينهما فى الحياة أو فى الموت [٤٩]:

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشري
وجاور إذا مامت بينى وبينها فياحبذا موتى إذا جاورت قبرى

وقد تمنى المجنون من الله مثل ما تمنى جميل ثم زاد عليه فقال[٥٠] :

ويااليتـــنا نحيــا جميعا وليتنــا نصير إذا متنا ضجيعين فى قبرِ

ضجيعين فى قبرٍ عن الناس معزل ونُقرَن يـوم البعث والحشر والنشر

ولا أجد أدق دلالة على هذه الأمنية الغالية ، وعلى هذا الارتباط الروحى الصادق مع الزيادة على كل ماسبق من قول الشاعر : (٥١)

ولوأننى إذ حــان وقت حِمامِها أُحكَّم فى عمرى، لقاسمتُهـ عُمري

فحلّ بنا الفقدان فى ساعةٍ معا فمتُ ولا تـدرى ، وماتت ولا أدري

ولهـذا نجـد المحب العـذرى هلوعـا مـتى أحس خطرا يتـهـدد محـبـوبتـه أو يتهـددهمـا بالفـراق ، وليس هذا إلا لأنهمـا روح واحدة توزعت إلى جسـدين ولا يلتئم شملها إلا بالقرب . ولعل الضراعة التالية لعبد الله بن عزرة الجعـى وقد اعتلت محبوبته ، تفصح عن هذا الهلع والتوجس من وثبات المجهول : (٥٢)

أيارب عيسى إن (زبراء) إن تمتْ أمُت أو أزايل شُعبةً من فؤ اديـــا

فأنعـــم عليّ نعمة واشفنى بــها وأنعم عليّ نعمـة واشــفها ليــا

فإنّا أُنــاسٌ خيرُنا فى اجتماعـنا فزد بعضنا من شمل بعض تدانـيا

وأجد الشاعر قد أوفى على الغاية فى بيان علاقته المصيرية بها وذلك فى قـوله لله تعـالى : (**فأنعم عليّ نعمه واشفنى بها**) ، لأنه يجـلـو إحساس محب يوقن تمام اليقين من أن بقاءه مرهون ببقاء محبوبته ، ومن أنه لن يبقى بعدها هانيء النفس معافى البدن . فشفاؤها إذن إنما هو شفاء له مما يتهدده برحيلها من أدواء النفس والجسد التى لابد أن تفضى به إلى الموت والأدب العربى حافل بأسماء كثيرين قضوا نحبهم لأن حيل بينهم وبين محبوباتهم . أصابهم من الحزن والذهول ما صرفهم عن تدبر أمر معيشتهم والتماس ضرورات

الحياة . وماجعلهم يهيمون على وجوههم لا يلوون على شيء مما ينفعهم حتى لفظوا أنفاسهم وجميل والمجنون يذكران فى شعرهما بعض هؤلاء . كما يذكران أنهما أصدق منهم عاطفة وأشد منهم بأحداث الفراق تفجعا [٥٣]

وقد عُد الموت بسبب الحب هو النهاية الطبيعية التى تؤكد صدقه ، فإذا لم يمت العاشق ، كان مظنونا فى حبه :[٥٤] .

وماعجبى موتُ المحبين فى الهوى ولكنّ بقاءُ العاشقين عجيبُ

وذكر صاحب « تزيين الأسواق » أنه قيل لأعرابى : « ممن الرجل ؟ » فقال : « من قوم إذا عشقوا ماتوا » ، فقال له : « عذريّ ورب الكعبة »[٥٥]

كما يذكر قول بعض حكماء الهند : « ماعلق العشق بأحد عندنا إلا وعزّينا أهله فيه » [٥٦] فإذا لم يتلف جسد المحب لاعتلال روحه حتى يرديه ، فليس أمامه إلا أن يسلك مسلك أبى العتاهية حين أيس من (عُتبة) ، إذ لبس الصوف وأدار ظهره للدنيا ، سالكا طريق الزهاد.[٥٧] وسنرى حين نتحدث عن هذه الظاهرة فى الشعر الرومانسى الحديث ، أن موت المحب لرحيل محبوبته أو لفراقها . مأثرة فى الأدب الرومانسى شعره ونثره ، تعلى من شأن عاطفة الحب وتمجد خلق الوفاء .

**

ثانيا : الإيثار

من مظاهر الحب الروحى ، ويتمثل فى عطاء المحب الذى لا ينتظر ردا فإن جُوزِى على الكثير بالقليل قنع ، وإن حُرِم هذا القليل صبر وهو إن عاتب محبوبته على بخلها فى مودتها فليس طمعا فى المكافأة والمجازاة ، وإنما ليستوثق من أن له فى نفسها مثل مالها عنده . فترضى نفسه وتهدأ خواطره . وفى كل الأحوال يبقى هذا المحب كالنبع الثرار لايكف عن العطاء ، مدفوعا بما

فى داخله من قوى غيبية توجهه وتملى عليه يقول جميل [٥٨]:

فلو أرسلتْ يومـا بثينةُ تبتغى يمينى ولـو عزّت علىّ يميني
لأعطيتُها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سَليني

وجميل إذ يمنح بثينة يمينه ، ويعلن عن استعداده لمنحها المزيد ، قد وطن نفسه على الرضا بكل ما يأتيه من وجهتها ، ولو أن فيه إيلاما لروحه [٥٩]:

وإنى لأرضـى مـن بثينة بالذى لو ابصره الواشي، لقرّت بلابلُهْ
بلا ، وبألا أسـتطيع وبالمنى وبالأمل المرجـو قد خاب آملُهْ
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخـره لا نلتقى وأوائـلُهْ

ولهذا كان يحس أن حبه وإخلاصه نوع متميز لا يقدر عليه أحد ويكثر من التعبيرعن هذا الإحساس [٦٠]:

وكل محب لم يزد فوق جهده وقد زدتها فى الحب منى على الجهدِ

ولننصت إليه وهو يباهى بتفرد حبه وتميزه [٦١]:

أفى الناس أمثالى أحبوا، فحبهم كحبي؟! أم أحببتُ من بينهم وحدى؟!

وما شعر به جميل ، شعر به غيره من أرباب الحب الروحى وتركوا فيه من منظوم الكلام ومنثوره قولا رائقا ، نكتفى منه بقول كثير عزّة [٦٢]:

الله يعلم لو أردت زيادة فى حب عزّة ماوجدت مزيدا

لقد عمرت قلوب هؤلاء المحبين وشفت نفوسهم ، فبلغوا بعاطفة الحب مدى بعيدا من الفداء والعطاء .

ثالثا : شِرْعةٌ خاصّةٌ

مثل هذا الحب الذى يملك على المحب نفسه ويدفع به فى طريق واحد مقدور لاعودة منه ، وعادة ما ينتهى بصاحبه إلى التلف والموت ، لا يمكن أن يكون خاضعا فى تصريفه لموازين العقل ، أو نازلا فى مسلكه على مقتضيات العرف وأحكام الشرع . فهذا الحب يضيق بكل ما يحدُّه ويقف فى سبيله ، كما يستن له من داخله قانونه وشرعته الخاصة التى تصطدم كثيرا بقوانين المجتمع ونظمه. وهل مما يؤسّسه العقلُ أو يُقيم معاييره ، حبٌّ لا طائل من ورائه ، يدله صاحبه حتى يقضى عليه [٦٣]:

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

وهل مما يؤسسه العقل ويسلك به وفق ما يقضى العرف ويحكم الشرع ، حبٌّ يدفع صاحبه إلى زيارة محبوبته وهى تحت رجل آخر ، فيخاطر بحياته ، ويتعجل حتفه[٦٤]:

ولو أن ألفا دون بثنة كلّهم غيارى وكلّ حاربٌ مزمع قتلي
لحاولتها ، إما نهارا مجاهرا وإما سُرَى ليل ولو قُطعت رجلي

وقد يقال إن نزوات امرىء القيس وغيره من عشاق الجسد هى الأخرى من هذه المخاطرات التى لا تخضع لعقل ولا تنضبط بعرف أو شرع . لكن ينبغى لنا أن نفرق بين اندفاع عاشق مثل جميل واندفاع امرىء القيس أو تسلله إلى أخبية معشوقاته ، فالأول لولهه الذى غلبه على أمره لا يحسب أنه يقارف إثما ، ويحس فى قرارة نفسه أن حبه لا يتعارض - لنقاء مصدره وصفاء مورده - مع القيم والشرائع أو أنه ينبغى أن تتّسع هذه الشرائع والأعراف لمثل هذا الحب الطاهر العف. ولهذا نراه دوما ينكر على الناس أن يحولوا بينه وبين إرضاء روحه بالا يجترح فى نظره إثما ولا يخلف سُبّة . أما امرؤ القيس وأتباع الشهوة فيدركون تماما ماهم قاصدون إليه من أفعال الغواية واللهو . فبعد قضائه ليلة أشبع فيها حاجات جسده نجده يقول [٦٥]:

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام سيىء الظن والبال

ولو أن هؤلاء العذريين المولهين أحسوا سلطانا ما لعقولهم ، أو ترك لهم تدلههم من الوعى ما يدركون به مقتضيات الشرع وتقاليد المجتمع ، ومن الإرادة ما يقدرون به فى مسلكهم على مراعاة ذلك ، لقطعوا حبال آمالهم حين استحكمت الفرقة ، ولاستهلوا حياة جديدة يعوضون فيها ما فاتهم بالبدائل المقترحة والفرص المتاحة . لكن كل واحد منهم ترك نفسه فى إسار محبوبته لا يحاول فكه ، ولا يرغب فى ذلك ولو لقى بسببه حتفه [٦٦]:

لا أستطيع نزوعا من مودتها ويصنع الحب بى فوق الذى صنعا

والمجنون صاحب هذا القول لا ينتظر أن يفعل الحب به أكثر مما فعل ، سوى أن يهلكه ، وهو بعد ذلك - كما سبق أن ذكرنا - دليلا على صحة شعر المحب وصدق عاطفته :[٦٧]

فما خير عشق ليس يقتل أهله كما قُتل العشاق فى سالف الدهرِ

ولم لا يرحب هؤلاء بالموت هياما ، وهم يرونه شهادة . وإلى هذا يشير ابن الصائغ فى قوله :[٦٨]

سأكتم ما ألقاه يانور ناظرى من الوجد كيلا يذهب الأجر باطلا
فقد جاءنا عن سيد الخلق أحمد ومن كان برا بالعبادة واصلا
بأن الذى فى الحب يكتم وجده يموت شهيدا فى الفراديس مُنزَلا

ويذكر الشاعر أن مثوبة العاشق العف بإنزاله الفردوس ، ليست أكثر مما يستحق، لما كابده من تباريح الوجد ومجاهدة النفس ، فيقول :

وما ذا كثير للذى مات مغرما سقيما عليلا بالهوى متساغلا

ولو أن هؤلاء العذريين كانوا يعقلون أمرهم ويعون سنن مجتمعهم ، ما

عادوا بالائمة على بعولة محبوباتهم ، ينكرون عليهم ما رهبهم الشرع من حقوق ، بينما يستحلّون لأنفسهم هم بشرعة الحب ، ما يرفض الشرع ويأبى العرف من خلوة مع المحبوب وسعى إلى الائتناس به ، مهما كانت هذه الخلوة طاهرة مبرّأة . فهذا جميل يصب سخطه على زوج بثينة لأنه يحول بينه وبين زيارتها: (٦٩)

إذا جئتُها يوما من الدهر زائـرًا	تعرّض منقوص اليدين صدودُ
يصدّ ويغضى عن هواى ويجتنى	عليّ ذنوبا ، إنهُ .. لعنـــودُ

فهو يتهم زوجها بأنه (**عنود**) و (**منقوص اليدين**) ، أى بخيل شحيح النفس . ولا ذنب اقترفه هذا الزوج ليتهَّم بهذا ، سوى أنه (**يُغضى عن هواه**) ويصده عن زيارة بثينة . وذنوب جميل التى لا يريد أن يقرّ بها ، هى هيامه ببثينة وسعيه الجاد إليها وقد صارت لغيره . وهذا شيء لا يعده بمنطق العاشق وشرعة المحب الوامق مما يؤخذ عليه . وبمثل هذا المنطق يعتب توبة الحميرى على زوج ليلى الأخيلية ، لأنه لا يخلّى بينهما : (٧٠)

عليّ دماء البُدن إن كان بعلها	يرى لى ذنبا غير أنى أزورها

فليست زيارته ليلى وقد أصبحت لغيره - فى نظره - ذنبا يؤاخذ عليه .

وهكذا نجد العاشق العذرى متى بلغ به الكَلَف مداه ، كان له منطقه الخاص وشرعته الخاصة يتدبر أحواله والحياة من حوله على هدى منهما . وهو لا يكتفى بأن يأتى دستوره الخاص مخالفا دستور الجماعة ، إذ نراه يطالب هذه الجماعة بأن تعدّل دستورها وقوانينها حتى تصبح موافقة لما سنّ وما شرّع ، وكأن ما يأتيه من مسلك الصَّب الوَله قاعدة الأشياء التى ينبغى أن يُقاس عليها.

ولا ينتظر من هؤلاء ومَن بلغ فى الحب مبلغهم أن يقيسوا أمورهم

بمقاييس المعافين الأصحاء الذين خلت قلوبهم ولم يداخل الهوى نفوسهم ، فهذا عبيد الله بن مسعود الفقيه العابد حفيد أخي عبد الله بن مسعود ، يطلّق زوجه ، ثم لا يصبر على مفارقتها ويصر على زيارتها وهي غير حلّ له ، فيُلام ويقول في ذلك وهو الفقيه والناسك :[٧١]

أأتركُ إتيان الحبيب تأثّماً ألا إن هجران الحبيب هو الإثمُ

فهو أمام عاطفته ينسى فقهه ، ولا يقر بأن هذه الزيارة إثم . وليته وقف عند هذا الحد ، إذ نراه يعكس الأمور وفق منطق العاشق فيجعل تركه هذه الزيارة هو عين الإثم .

**

رابعا : تبديل الطبائع

ولا يكون لهذا الحب الروحي قانونه الخاص الذي ينبع من داخله مخالفا في أغلب أحواله قانون الجماعة ، إلا حين يطرأ تغير شديد على نفس صاحبه ، يبدّل من طبعه ويحوّله عما كان عليه قبلا من اتساق مع الجماعة فكرا وسلوكا ، ومن يتتبع هذه العاطفة ويبحث عن أثرها في حياة الأفراد وفي تحوير ملامح شخصياتهم، يقف على كثير من الأخبار ، تؤكد سرعة استجابة النفوس لدائها ، فيلين لها العاصي ويسمح بها البخيل ، ويشجع بها الجبان ، ويكاد الطبع برمّته يتحوّل إرضاء لهذه العاطفة وانحيازا مع تيارها . يقول صاحب (تزيين الأسواق) :

" واعلم أن العشق متى استولى لم يُبق صفة سواه ، ولذلك يُذهب الأخلاق العسرة وقوّة النفس " [٧٢] يقصد بقوة النفس ، ما قد تتصف به من خشونة وجفوة . ويروى ما كان من أمر (بهرام جور) مع ابنه الوحيد الذي كان سيخلفه على العرش ، وكان الابن ساقط الهمّة ، لا يرقى بفكره أو بمسلكه إلى مثل هذه المهمة الخطيرة الشأن . فقد نصحه الحكماء بأن لن يُصلح شأنه إلا أن

تعلق نفسه فيأخذ فيما يأخذ فيه المحبون من تهذيب أخلاقهم وعقولهم وتأكيد ذواتهم . فسُلطت عليه الجوارى يمترضن سبيله حتى علق بإحداهن ، وبدا عليه من أمارت الاهتمام ما جعله خليقا بخلافة أبيه [٧٣]

ولو أن هذه العاطفة لا تبدّل طبع المحب وتغيّر نظرته إلى الحياة وتعيد تقويمه الأمور ، ما سمعنا قول كثيرّ الذى يتردد صداه فى أنحاء كثيرة من الشعرالعربى :[٧٤]

وإنى لأرعى قومها من جلالــها وإن أظهروا غشا نصحت لهم جهدى

ولوحاربوا قومى لكنت لقومــها صديقا، ولم أحمل على قومها حقدى

فلو أن الحب لا يعيد صياغة صاحبه صياغة نفسية جديدة تغيّر نظرته إلى الأشياء، ما وصل الأمر بهذا المحب إلى حدّ أن يستّل نفسه من عشيرته ويخرج على تقاليدها ، وعلى ما تواضع مجتمعه عليه . فهو بعد أن مس الحب قلبه لم يعد يقر ما كان يحافظ عليه قبْلا من أعراف قومه ، متى كانت متعارضة مع تيار نفسه ، فلا نجده يغضب لغضبتهم أو يحمل على عدرهم بحملتهم . بل نرى فى مسلكه ما هو أخطر من ذلك فى معايير الجماعات البشرية بعامة ، نراه يدير ظهره لقومه متخذا من عدوّهم صديقا ، ففيهم محبوبته ،و هو لا يملك إلا أن يدير وجهه إلى حيث تكون ، فهى وجهته والقطب الجاذب الموجّه حركته . أليس هنا ما يؤكده قول المجنون :[٧٥]

يقولون : ليلى أهل بيت عداوة بنفسيَ ليلى ، أهلُ بيتى ، وماليا

فقد أراد قومه أن يبعدوه عن (ليلى) ، وظنوا أنهم قادرون على ذلك بما يذكرونه له من أمر العداء القائم بينهم وبين قومها وما كان أولئك يدركون أنه فى حبه الذى استحوذ على كل أمره ، لا يبالى بما يبالون به ، فهو - مشغولا بأمر ليلى لا يأبه بغير ما استحكم بينه وبينها من علائق وقد جاء رده فى

الشطر الثانى من البيت قاطعا ، ومحدّدا اختياره وتوجهه اللذين يتوافقان مع تيار الحب فى نفسه ، لا مع تيار قبيلته وسياستها .

ولا يتسع البحث لذكر العديد من الشواهد التى تبرز لنا هذا المضمون النفسى ، ولهذا أكتفى بذكر شاهدين آخرين ، هما قول ابن الدمينة :[٣٦]

فمن حبها أحببتُ من لايحبنى وصانعتُ من قد كنتُ أبعد جهدى

وقول جميل وقد حذّروه قدوم أخى بثينة مما يتهدده لذلك من خطر :[٧٧]

وقالوا : يا جميل أتى أخوها فقلت : أتى الحبيب أخو الحبيبِ

وليس ما تحمله هذه الأبيات وغيرها من معانى التحول النفسى وتغير النظرة إلى الأمور ، مجرد شعور وقتى يعبر عنه العاشق، فأنا لا أستبعد أن تكون حياة هؤلاء وأن يكون منهجهم العملى صورة مطابقة لأقوالهم . وإننا لنشهد فى عصرنا من الواقع ما يؤكد ذلك ، من مغاضبة الأبناء ذويهم وخروجهم عن طاعتهم ، أو هجرهم إرضاء لعواطفهم .

ومن آثار تبدل طبائع المحبين بعد اعتلاق نفوسهم ما يلاحظ عليهم من عدم اكتراث لما يسوء من واقع المحبوب ، خُلقًا أو خلقًا ، و الجنوح دوما إلى تحويله أو تبريره وتعليله . فالعاشق دوما يقدّم من العلل ويلتمس من المعاذير ما ينفى كل قبح عن صاحبته ، إن لم يحوّل بعين رضاه وطبيعته المتبدلة ، هذا القبح إلى صورة مُثلى من الجمال الخِلقى والمعنوى ، لا يكاد أحد غيره يُقرّه على شبيء منها . ولولا هذا ما سمعنا قول المجنون الذى يتكرر مثله على لسان العاشقين فى كل زمان ومكان :[٧٨]

يقرّ لعينى قربها ويزيدنى بها عجبا من كان عندى يعيبها

ولولا هذا أيضا ما وجدناه يرد على أهله ، وقد أرادوا أن يصرفوه عن (ليلى) حفاظا على حياته :(٧٩)

يقول ليَ الواشون : ليلى قصيرةُ | فليت ذراعًا عُرض ليلى وطولُها
وأن بعينيها لعمرك شُهلَةٌ | فقلت : كرام الطير شُهلٌ عيونها
وجاحظة فوهاء .لابأس إنها | مُنى كبدى، بل كل نفسى وسولها
فدق صلاب الصخر رأسك سرمدا | فإنى إلى حين الممات خليلها

فما زالوا يحاجّونه ويرد عليهم ، يذكرون له عيوبها فيقلبها إلى ميزات إلى أن نفد صبره وضاقت بهم نفسه فأعلن رضاه المطلق بكل أحوالها وصفاتها ما ذكروه وما لم يذكروه . ولعل من أفضل ما قيل فى وصف هذا الجانب النفسى عند المحبين ، قول كشاجم :(٨٠)

أدير طرفى فلا أرى حَسنًا | إلا أرى فيك ذلك الحَسنَا

وهذا الموقف فى حياة المحبين لا أثر له عند امرىء القيس وأتباع مذهبه الذين أسسوا علاقتهم بالمرأة على اشتهاء جسدها ، فصارت لا تستميلهم إلا بقدر حظها من عوامل الإغراء وأسباب الفتنة .

إذن فهناك قوى خفية تبدّل طبع العاشق وتحرك نفسه وتصنع له قراره ، وتحدد له فى المواقف ذاتا مستقلة متميزة برأيها وأحكامها . ولا يقتصر تأثير هذه القوى على هذا الحد ، فإنها كما تُلهم صاحبها القرار والحكم و الرأى المستقل ، تهبه الطاقة والعزم و الرغبة فى بذل الجهد لتحقيق الذات ، على نحو ما رأينا فى خبر (بهرام جور) مع ابنه ، وما نرى فيما يرويه صاحب الأغانى من أمر (جميل) مع (توبة) الحميرى . يذكر صاحب الأغانى أن توبة " خرج إلى الشام فمر ببنى عذرة ، فرأته بثينة فجعلت تنظر إليه ، فشق ذلك على جميل وكان ذلك قبل أن يبدى حبه لها . فقال له جميل : مَن أنت ؟

قال أنا توبة بن الحُمَيِّر . فقال : هل لك فى الصراع ؟ قال: ذلك إليك . فشدت عليه بثينة ملحفةً مُوَرسة فأتزر بها ثم صارعه توبة فصرعه جميل . ثم قال : هل لك فى النضال ؟ قال : نعم ،فناضله فنضله جميل . ثم قال : هل لك فى السباق؟ فقال : نعم ، فسابقه فسبقه جميل . فقال له توبة : ياهذا إنما تفعل هذا بـ (ريح) هذه الجالسة . ولكن اهبط بنا الوادى . فصرعه توبة ونضله وسبقه".[٨١]

وهذا الخبر يشير إلى بعض قوى الحب التى تجدد حياة الإنسان و تضاعف من جهده . فرغبة جميل فى تأكيد ذاته أمام (بثينة) للظفر بحبها وإعجابها، هى التى أمدته بعزم فوق عزمه وطاقة فوق طاقته ، حتى تمكن من قهر خصمه و التغلب عليه . ولقد أدرك توبة سر انتصار جميل ، فهو لا يتغلب عليه إلا (بريح بثينة) ، لهذا نقل ميدان الصراع بينهما بعيدا عنها ، وصدق تقديره إذ انهزم جميل، وكأن عزمه - بعيدا عن محبوبته - قد استلّ وطاقته التى كان يصارع بها قد استُلبت ، فارتد إلى كنهه وأصل قوته .

وأخيرا فإن ما يصف هؤلاء المحبون من اضطراب أحوالهم ، يجعل القارىء المتتبع أخبارهم يحس أن لا استقامة لهم أبدا على منهج أصحاء القلوب ، وأن لا برء يُرجَى لهم من علة ، وأنهم سائرون كلٌّ فى سبيل حبه لا يحيد عنه حتى يبلغ نهاية الشوط ، وهى عادة ما تكون قاتمة فاجعة هل يُرجَى بُرء لمُحِب يقول عن نفسه :[٨٢]

ووالله ما أدرى إذا ما ذكرتُها أثنتين صلّيتُ الضُحى أم ثمانيا ؟!

ولآخر يقول :[٨٣]

أصلّى فأبكى فى الصلاة لذكرها لى الويل مما يكتب المَلَكان

فهؤلاء يذهلون فى كل شيء وعن كل شيء ، حتى ضروات حياتهم ،

ويعدّون هذا الذهول من أهم سمات الحب الصادق ، حتى إن جميلا يتهم رجلا فيقول له :[٨٤]

فلو كنتَ عذريَّ العلاقة لم تكن بطينا ونسّاك الهوى كثرة الأكلِ

ومن الطبيعى أن تسوء حالة العاشق العذرى الذى دلّهه الحب ، وأن يضعف بدنه . ولهذا كثر حديث العذريين عن العلاقة بين نحول الجسم وصدق الحب .ومن جيد أقوالهم فى ذلك ، وصف المجنون جسده الذى شفّه الحب :[٨٥]

ألا إنما غادرتِ يا أم مالكٍ صدًى أينما تذهب به الريحُ يذهبِ

وهذا الجسد الذى أضناه الحب حتى أصبح مثل الصّدى لا جِرْم له ، لا نجده فيما يصف امرؤ القيس ، فضلا عن أنه وأتباع مذهبه لا يذكرون شيئا من المعانى العذرية الكثيرة التى بسطناها ، ولا يصوّرون ولو قليلا من صبابة العذريين وأشواق نفوسهم .

لقد كان الحب من نفوس هؤلاء العذريين بمنزلة الماء والهواء سببا للحياة ، بل وصل عندهم إلى أن يكون الحياة عينها ، فمن فقد إلفه فقد حياته ، أو استحث موته . ولأنهم جعلوا الحب جوهرا لا عَرَضا من أعراض الحياة ، تمنوا ألاّ يُفجَّع محب فى محبوبه بفرقة . حتى الأنعام المتآلفة المتحابة اتسعت قلوبهم لها إنسانية ورحمةً ، فتمنوا لها من التئام الشمل و الوصل ما تمنوه لأنفسهم.[٨٦]

فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيانِ
فيقضى حبيبٌ من حبيبٍ لبانةً ويرعاهما ربى فلا يُريانِ

* *

أوّلا : هوامش المقدمة

(١) مصطفى صادق الرافعى : ديوان الرافعى ج٢ (المطبعة العمومية - القاهرة سنة ١٣٢٠هـ) ص٥٣ .

(٢) القرآن الكريم آية (٣٠) سورة المائدة

(٣) أحمد محرم : ديوان محرم (مطبعة الجريدة ـ القاهرة سنة ١٩٠٨ م) ، ص١٧٦

(٤) المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد) الفاضل ، تحقيق عبد العزيز الميمنى (دار لكتب المصرية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦ م) ص ٨٦

(٥) أحمد تيمور : الحب عند العرب ط١ (دار لكتاب العربى ـ القاهرة ١٩٦٤) ص ٥٨ .

(٦) أبو زيد القرشى (أحمد بن أبى الخطاب) جمهرة أشعار العرب (دار الكتب السلمية ـ بيروت ـ سنة ١٩٨٦ م) ص ٣٥٢ .

(٧) يعنى حصانه .

(٨) السُّمينه : موضع دياره .

(٩) يُنسب هذا البيت إلى البهاء زهير ، ولم أجده فى ديوانه ، انظر : الشوقيات ج٢ ص١٣٠ .

(١٠) أحمد شوقى ، الشوقيات ج١ ، ج٢ (مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٥٨م) ص١٤٤ .

(١١) جبران خليل جبران ، الأعمال الكاملة فى اللغة العربية تقديم ميخائيل نعيمة (شركة التوزيع المتحدة - بيروت - بدون تاريخ). ص٦٠٢ .

(١٢) د. زكريا إبراهيم : سيكولوجية المرأة (دار مصر للطباعة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) ص٤، د. محمد عوض خميس : دفاعا عن المرأة (العربى للنشر ـ القاهرة سنة ١٩١٥ م) ص٢٦، ٥٥، ٥٧ .

(١٣) أحمد تيمور ، الحب عند العرب ص ١٥ .

(١٤) المرجع السابق ص ٨٣ .

(١٥) انظر على سبيل المثال د. سعد دعبيس ، الغزل فى الشعر العربى الحديث ط١ المكتبة الوطنية - بنغازى ١٩٧١م) .

ثانياً : هوامش المدخل

(١) الأعلم الشنتمرى : أشعار الشعراء الستة الجاهليين ط٣ ج١ (دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ١٩٨٣ م) ص ٣١

(٢) المرجع السابق ص ٤٨

(٣) انظر قوله في المرجع نفسه ص ١٣٥ :

ومتهنّ سوفى الخود قد بلّها الندى تراقبُ منظوم التمائم مُرضعا

.... إلخ .

(٤) عمر بن أبي ربيعة : ديوانه ، تصحيح بشير يموت ط١ (المطبعة الوطنية ـ بيروت ١٩٣٤ م) ص ٧ .

(٥) المرجع السابق ص ١٠ .

(٦) المرجع نفسه ص ١١ .

(٧) المرجع نفسه ص ١٦ .

(٨) جميل بن معمر : ديوانه ، جمع وتحقيق د. حسين نصار ط٢ (مكتبة مصر ـ القاهرة سنة ١٩٦٧) ص ١٠٠ .

(٩) المرجع السابق ص ٧٣ .

(١٠) داود بن عمر الأنطاكى : تزيين الأسواق ... ج١ (المطبعة الأزهرية المصرية ـ القاهرة ـ سنة ١٣٠٢ هـ) ص ٧٧ .

(١١) المرجع السابق ص ١١

(١٢) ابن الدمينة (عبد الله بن عبيد الله) ديوانه ، شرح محمد الهاشمى البغدادى ط١ (مطبعة المنار ـ القاهرة سنة ١٩١٨ م) ص ١٠ .

(١٣) أحمد عبد الستار الجواري : الحب العذري : نشأته وتطوره (دار الكتاب العربي ـ القاهرة بدون تاريخ) ص ١٣٠ .

(١٤) أبو الفرج الأصفهانى (على بن الحسين بن محمد) : الأغانى ج ١١ ط١ دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨ ص ١٦٩ .

(١٥) مجنون ليلى (قيس بن الملوّح) : ديوانه ، جمع أبى بكر الوالبى (المطبعة الكبرى - القاهرة سنة ١٢٩٤ هـ) ص ٢٨ .

(١٦) الأغانى ج ١١ ص ٢٠٥ .

(١٧) المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(١٩) أحمد شوقى : مجنون ليلى (المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة سنة ١٩٥٣م)ص ١٢٠.

(٢٠) ديوان المجنون ص ١٣ .

(٢١) أشعار الستة الجاهليين ص ٤٦ .

(٢٢) ديوان عمر بن أبى ربيعة ص ٦٥ .

(٢٣) المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢٤) ديوان المجنون ص ١٠ .

(٢٥) ديوان جميل ص ٦٩ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٣١ .

(٢٧) المرجع نفسه ص ١٧٩ .

(٢٨) ديوان المجنون ص ٢٨ .

(٢٩) أحمد تيمور ، الحب عند العرب ص ٢٢ .

(٣٠) ديوان المجنون ص ٢٩ .

(٣١) الراغب الأصفهانى ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ج٢ المطبعة العمومية - القاهرة ١٣٢٠هـ) ص٢٧

(٣٢) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ، الشعر والشعراء ، تعليق محمد بدر الدين ، ط١ (مطبعة الخانجى - القاهرة ١٣٢٢هـ) ص٣١ .

(٣٣) البحترى (الوليد أبو عبادة) ديوان البحترى تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفى المجلد الأول (دار المعارف - القاهرة سنة ١٩٧٧م) ص٣٢٣ .

(٣٤) ديوان جميل ص ١٦٧ .

(٣٥) أبو فراس (الحارث بن سعيد بن حمدان) ديوان أبى فراس . جمع وتعليق د سامى الدهان (نشر المعهد الفرنسى ـ دمشق سنة ١٩٤٤ م) ص ٣٦

(٣٦) ديوان المجنون ص ٤٤ .

(٣٧) ديوان جميل ص ٩٣

(٣٨) المعّرى (أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان) شروح سقط الزند، تحقيق مصطفى السقا (بالاشتراك). القسم الثالث (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٩٨٧) ص ٣٩٧ . ويكرر الفرزدق الأمنية نفسها فيقول :

ألا ليتنا كنا بعيريْن ، لاتُرى	على منهل إلا نُشَلّ ونُقذفُ
كلانا به عَرٌ يُخاف قرانه	على الناس، مطليّ المساعر أخشفُ
بأرض خلاء وحدنا ، وثيابنا	من الريط والديباج درع وملحفُ
ولا زاد إلا فضلتان : سلاقة	وأبيض من ماء الغمامة قرقفُ

جمهرة أشعار العرب ص ٤٠٥ .

(٣٩) ديوان جميل ص ١٩٦ .

(٤٠) المرجع السابق ص ٧٣ .

(٤١) المرجع نفسه ص ٩٦ .

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٦٠ .

(٤٣) المرجع نفسه ص ١٢٢ .

(٤٤) تزيين الأسواق ج١ ص ٧٧ .

(٤٥) ديوان المجنون ص ٨ .

(٤٦) ديوان جميل ص ٧٧ .

(٤٧) المتنبى (أحمد بن الحسين) ديوان أبى الطيب المتنبى ، شرح أبى البقاء العكبرى ، ضبط وتصحيح مصطفى السقا (بالاشتراك) ج٤ (دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٩٧٨م) ص ٢٨٨.

(٤٨) ديوان جميل ص ٥

(٤٩) المرجع السابق ص ٤ ١

(٥٠) ديوان المجنون ص ٤٤ .

(٥١) أبو تمام (حبيب بن أوس الطائى) كتاب الوحشيات تحقيق عبد العزيز الميمني ط٣ (دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٧) ص ١٨٧ .

(٥٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .

(٥٣) ديوان جميل ص ٥٩ وديوان المجنون ص ٣١،١١ . كل منهما يشير إلى طائفة من أولئك العشاق .

(٥٤) تزيين الأسواق ص ٨٠ .

(٥٥) المرجع السابق ص ٩ .

(٥٦) المرجع نفسه ص ١٠

(٥٧) أحمد تيمور : الحب عند العرب ١٦٩ .

(٥٨) ديوان جميل ص ٢١٠ .

(٥٩) المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٦٠) المرجع نفسه ص ٧٥ .

(٦١) المرجع نفسه ص ٧٣ .

(٦٢) المرجع نفسه ص ١٢ .

(٦٣) المرجع نفسه ص ١٧٦ .

(٦٤) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٦٥) أشعار الستة الجاهليين ص ٤٨ .

(٦٦) ديوان المجنون ص ٩ .

(٦٧) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٦٨) تزيين الأسواق ج١ ص٦ .

(٦٩) ديوان جميل ص ٦٤ .

(٧٠) الأغانى ج ١١ ص ٢٠٨ .

(٧١) الحب العذرى : نشأته وتطوره ص ٨٧ .

(٧٢) تزيين الأسواق ج١ ص ١

(٧٣) المرجع السابق ص ١١ .

(٧٤) كثير بن عبد الرحمن ، ديوان كثير ،(طبعة هنرى بيرس ـ باريس سنة ١٩٣٠م) ص١٥.

(٧٥) ديوان المجنون ص ٨ .

(٧٦) ديوان ابن الدمينة ص ٢٩ .

(٧٧) ديوان جميل ص ١١٤.

(٧٨) ديوان المجنون ص ٥ .

(٧٩) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٨٠) محاضرات الأدباء ج٢ ص ٢٧ .

(٨١) الأغانى ج ١١ ص ٢٤٠ .

(٨٢) سقط الزند ج ١ ص ٢٩٢ .

(٨٣) ديوان جميل ص ٢٠٤ .

(٨٤) المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٨٥) الوحشيات ص ١٩٨

(٨٦) النص منقول عن د. أحمد الحوفى : الغزل فى العصر الجاهلى ط٣ (دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ) ص ١٩١ .

* *